جدارية سيدة العواصم

مقالات ومذكرات في عمّان

تأليف

هشام إبراهيم الأخرس

دار المأمون للنّشر والتَوزيع

الطبعة الأولى
١٤٣٢هـ - ٢٠١١ م

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(٢٠١٠/١١/٤٣٩٧)

اسم الكتاب: جدارية سيدة العواصم: مقالات ومذكرات في عمان
اسم المؤلف: هشام إبراهيم الأخرس
الواصفات: المقالات العربية // العصر الحديث /

جميع الحقوق محفوظة

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه "أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

ISBN ٩٧٨-٩٩٥٧-٧٧-٠٦١-٧ (ردمك)



دار المأمون للنشر والتوزيع
العبدلي - عمارة جوهرة القدس
تلفاكس: ٤٦٤٥٧٥٧
ص.ب: ٩٢٧٨٠٢ عمان ١١١٩٠ الأردن
E-mail: daralmamoun@maktoob.com

الفهرس


بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى عمّان الماضي والحاضر والمستقبل

إلى أمي وأبي

إلى كل من سكن عمان وعشق تفاصيلها

إلى الأصحاب والأصدقاء

إلى كل من ساعدني وشجّعني

إليكم جميعاً

أهدي عملي هذا

هشام

المقدمة

عمّان التي تسكن القلب والروح لها كل الذكريات في ثنايا القلب والبال، وهي مسقط الرأس والقلب معاً، وفيها قصصنا وحكاياتنا وفقرنا وأجمل أيام العمر التي التصقت بالروح وبقيت تتحكم في مشاعرنا إلى يومنا هذا برغم التقدم والتمدن والحضارة.

عمّان هي سيدة العواصم والمدن الكبيرة، وستبقى عمّان الأم الحنون والمدينة التي تحنّ علينا في بردنا وفقرنا.

لها الحب

ولها المجد

والخلود

هشام

٧

جدارية سيدة العواصم

بلا بحر يا عمّان، وعطشى يا سيدة العواصم والمدن الكبيرة، ولا يعرف عمّان جيداً إلا من وقف على أبواب السفارات هارباً منها وباحثاً عن الدولارات في كلفورنيا أو شيكاغو، حيث لا عشائر تتبرع بالدم هناك، ولا رفيق يقرضك وقت حاجة ولا أصدقاء، عمّان يغضب منها سائق تكسي في أزمة سير ويصالحها في المساء، لا شيء أخضرَ في عمّان سوى القلب الذي التصق بآخر شجيرات أزالها صاحب البستان كي يبني عمارة ويؤمّن مستقبل أطفاله ويبخل على عمّان، وعمّان لا تنام وعند هدوء شرقها يتراقص غربها وتزدحم الأماكن وتمل شوارعها من فوضى المركبات التي تتكاثر كما الذباب وتأخذ حصة من الأرصفة المتعبة.

عمّان لا تأبه بعواصم تحاول أن تغيظها وتقف لتفاخر الدنيا بمسرح الرومان، وشعبٍ يحملها على الأكتاف، ومغترب يبكيها ويبكي سهرة على طرف شارع، ويبكي طعم الفلافل والمناسف، ويبكي على مشاجرة فاتت ولم يحضرها مع الأصحاب، وكان قد حلها رئيس المخفر بالميانة، وعمّان تتوسد الروح مثل عشق اليافعين، وعمّان سر جمالها بفوضى اللون المزركش مثل حبل غسيل لعائلة مستورة، وعمّان هي عمّان التي تملكنا كما نحن نملكها وتوزع العدل بين الجوامع والكنائس، ووحدها تملك سر التمسك بالأرض وتلفظ بائعيها الغرباء.

عمّان بشرى الفقراء الطيبين وذكرى الأغنياء وقصة إصرار يصنعها عامل وطن على شوارع مليئة بأعقاب السجائر وأكواب القهوة التي تباع كما العصائر على جنبات الطرق، وعمّان تمحو تعب الجسد بفرح الروح وتغطي مريضها بأهدابها، وفيها ارتباط الناس بالناس منذ أن ذوبت حرارة الحب برودة الأجواء، وتصاهر النابلسي مع الشيشاني والعبادي مع الشركسي، ومنذ أن حضنت عشائر البلقاء الأسى في عيون ضفاوية.

عمّان، وهذا السواد ليس تلوثاً ولا انبعاث العوادم، إنه شالها الأسود والذي يخفي جمالها عن الأقمار التي تتجسس على الحب والتمدن وتكنولوجيا التفاهم على توزيع الأرزاق.

عمّان انبهار السياح الأجانب الذين يحملون كاميراتهم لتصوير جمالها، ويمشون سيراً على الأقدام في شارع طلال للبحث عن أشياء تحكي عن تراثنا، ومكتوب على طرفها صنع في الصين، وعلى عملات قديمة صكها الشباب في القرن العشرين وتعتقت بالغش والطمع.

عمّان وحكاية لرب أسرة مل من ضوضائها، وساق نفسه لرحلة استجمام بعيدة فلم تصبر الروح على بعدها وعاد متأثراً والقلب يعتصر ألماً من فراقها.

عمّان تحكي قصصاً لأطفال يبيعون البالة في أسواقها وطفلة تمسح الحزن عن زجاج سيارة فارهة على إشارة عبدون، وامرأة تحمل رضيعها وتتلقط رزقه من دكاكين عتيقة في شارع طلال.

عمّان هي فوضى الأفراح وحفلات التخرج وسهرات النجاح وبيت فرح أقامه شاب على طريق عام، وعمّان صباح الإذاعات والشكاوى التي تنتشر عبر الأثير في فضاءات جرح، وعمّان زنبقة بيضاء على رصيف فيلا في عبدون يحرسها اثنان من الحرس خوفاً عليها من الأغنام التي ما زالت تسرح قرب السفارة الأمريكية برغم التمدن والحضارة، وعمّان بسطات للخضار على جنبات الطرق وبائعة للبيض على طريق المطار، تبيعه منذ عقدين ونيف، وعمّان أسرار الليل في قلب فتاة تنهي عملها قبل الفجر لتلحق بركب المصلين جماعة، وكانت تغني أغاني الشوق قبل قراءة القرآن، وعمّان باصات ما ملت تنقل الركاب وتخالف القانون في وضح النهار و(كنترول) يضع في أذنيه السماعات ولا يسمع صراخ راكب أراد النزول وراكب شيخ كبير يتأفف من هول المنكرات ورائحة السوابق في جسده.

وعمّان طلاب جامعة يافعين قد دخلوا للتو كلياتهم وأطلق عليهم من سبقوهم (سنافر)، دخلوا وبأيديهم قلم ومسطرة وقنوة، ولهم حكايات حب ومشاجرات على إثبات الرجولة والنسب.

عمّان شتاءً، سيول تجري في الشوارع وإعلان طوارئ وعمال أمانة كبار في السن ويتعكزون على مجارفهم وانقطاع كهرباء وأزمة على المخابز ومحطات الوقود ومناهل للصرف الصحي تصرف مكنوناتها على شوارعها وسيلها المختبئ في أحشائها.

عمّان ربيعاً، عشبة تشق بلاط الرصيف ورحلات لطريق المطار ورائحة جميلة تسرح بالأفق وختيار سبعيني يقول :

(الحمد لله عمّان إنغسلت)

عمّان صيفاً، أزمة سير، أزمة مشاجرات، أزمة مرونة وحياة تسير على عجل وسيارات لشرطة النجدة تحرس مدارس البنات من عبث الطلاب الهاربين من على أسوار المدارس، ومغتربين يكتظون في أزقتها ويشترون كل أشيائها الجميلة لتحرسهم في غربتهم عنها.

عمّان سيدة العواصم والمدن الكبيرة تستقبل الضيوف من بواباتها فتحرس الزرقاء شرقها وتحرس السلط غربها وتحرس جرش شمالها ويتكفل البدو الطيبون في جنوبها حيث المطار ومخيم بعيد يحكي قصة انتظار.

عمّان شمس العواصم ودرة المدن الكبيرة وعمّان على أطلالها غنت فيروز وكتب حيدر أشعار عشق وجمال وعمّان تعشق ذاتها وتطلق عنانها بآهات عشق وزغرودة على لسان امرأة في الأربعين وبحة في صوت إمام مسجد كبير كان قد صلى في الناس على صوت السماعات.

عمّان وفتاة تدرس الكيمياء، وتعمل منذ الصباح في مطعم لبيع الوجبات السريعة، وتحدثت عنها جاراتها غيبة ونميمة، وشاب بيده آلة حاسبة ويحسب تكاليف زواجه ويلعن الحظ والوقت (ألف ذهب، ألف غرفة نوم، خمسمائة لطقم الكنب، ألف كسوة، ألف صالة، غسالة ثلاجة تلفزيون غاز) ويصرخ في أمه الحنون (لماذا خلفتموني).

عمّان لها شوق في قلوب الغائبين وعمّان لوحة سريالية يصعب حلها ولغز في فم بدوي من الطراز القديم، وعمّان عمرها ألف عام وأمانتها احتفلت بمئوية فقط، إنهم يريدونها

عروساً وهي تعتقت في الشيب منذ سبيل الحوريات وجرار الماء على أطراف السيل وفيلادلفيا وأهل الكهف ومربع لخطوط التجارة بين الشام والعالم.

عمّان تحرسنا وعلى أكتافها تعب السنين وتعطي كل مواطنيها الحصانة.

عمّان تسمعنا
عمّان تجمعنا
عمّان تصنعنا
عمّان توزعنا كل صباح
عمّان ترافقنا حيث اتجهنا
وتمسح عن جباهنا حبات العرق
وتنشر في أفقنا الألق
وعمّان تستودعنا الله دائماً وتحن بأكفها علينا
فنكتب في مدارسنا وعلى كراستنا
عمّان أم المكارم
عمّان سيدة العواصم
عمّان سيدة العواصم والمدن الكبيرة

في اللويبدة رائحة الياسمين

كنت صغيراً عندما قررت وصديقي زيارة اللويبدة ذات صيف، حيث قال صديقي إن كبار عمان يقطنون هنا، كنت أناظر البيوت العتيقة وأسترق السمع لصديقي عندما قال جملته فوجدتني أسرح بمخيلتي وكأني أشاهد كبار عمان

وبيوتهم وسياراتهم وحياتهم وحديقتهم، فتكونت لدي صورة عن جبل اللويبدة منذ عشرين عاماً ولم تتغير.

جبل اللويبدة حيث كان يسكن الأغنياء وحيث كنت تشاهد البنات الجميلات وشباباً كانوا يمشون ويحملون كتباً ومجلات حيث كانت تباع في الدكاكين هناك، وثمة شاب وحبيبته يلتصقون على جدار لوزميلا، وآخرون يمرحون في حديقة عليها حارس ستيني لطيف، وشاب يافع يصعد درج البلد وبيده مسطرة تشير إلى جامعته.

مشينا، وقال صديقي هنا كانت دار كلوب باشا، ذاك الذي طردناه على حين ثورة، وقال إن في اللويبدة عاش وزراء وزعماء وقادة، وقال هناك بيت زيد الرفاعي، وكان الحرس دائماً ما يعطوا آباءنا خبز الجيش، وفي الأفق هناك سكنت أميرة، وهنا زار الحسين رفاقه، ومن هنا مرّ عرار، وهنا تغنى في أفق عمان مؤنس الرزاز.

في اللويبدة رائحة الياسمين وبيوت قديمة توزّع الجوري على أسوارها ودار للفنون اشتراها شومان للمبدعين هناك وبلكونة مطلة على السواد الذي ينبعث من فوضى عمان ووسط البلد وعلى رائحة عرق العمال المتعبين.

في اللويبدة التقيت وسميح القاسم، وهناك كان قد ألقى ما جاد به من ألق، وغنى لفلسطين، وقال: تقدموا تقدموا، وهناك شاهدت لأول مرة رسمات كان قد أبدعها ناجي العلي قبل أن يموت على ورق صحف اغتالته قبل الممات.

في اللويبدة قلب عمان القديمة ومسكن التجّار والسياسيين والمثقفين قبل أن يغادروها إلى عبدون التي تعجّ بالمال

وفوضى المولات والكتب التي استبدلوها باللاب توب والبلاك بيري، وللوحات تشكيلية استبدلوها بفن المكائن من صنع الصين.

لا زالت اللويبدة ترسم على صباح عمان الألق، وتنثر عبير ياسمينها المعتق في سمائها، وتعج بالأحاسيس التي تولد هناك وتموت حيث ننوي مغادرتها إذ ما نوينا التوقف عن متعة الروح عندما تلتقي بالروحِ وسط غيابها.

للويبدة مكانة وسط قلوب أهل عمان وزوّارها وسيّاحها منذ الرفاعي وسليمان النابلسي وحسني فريز إلى يومنا حيث ستبقى قلب عمان وقلب الوطن النابض عشقاً وحباً وثقافة لا تموت.

ضوضاء في أزقة عمّان

عمان ترخي جدائلها فجراً، وتستيقظ مبكرةً، ويصحو على أصوات الجوامع فقراؤها المتعبون، ومن لا يملكون زجاجاً عازلاً للصوت ومن لا يسمعون موسيقى بيتهوفن تصدح في غرف نومهم، ويطلبون الرزق مبكرين، وتبدأ الطرقات

بالازدحام ويختلط الجميع بالجميع وتبدأ حكاية عمانية جديدة.

يبدأ بائعو الخضار المتجولون بالصراخ في أزقة أنهكها الزمن، وتأتي لنفس الأزقة سيارة الغاز وأخرى للدجاج الرخيص والطاعن في السن وأزرق الجنبات، وثمة بائع كعك متجول، وآخر يبيع الحليب وينادي بصوت عال (حليب بقر طازة) وكأن البقرة في سيارته ويحلبها للتو.

تبدأ الأزقة ذاتها بالذهول، وتصاب بتخمة الضوضاء، ولكنها تطلب المزيد لعل بائعاً آخر في الجوار كان قد استراح للتو في ظل شجرة زرعتها أمانة عمان منذ الروابدة أو ممدوح، وآخر قد خبأ أغراضه في متوضأ المسجد القريب وأرخى جسمه المنهك على بلاطه البارد أو سجاده المزركش بقطع تبرع فيها صاحب بقالة في الجوار ليطهر بها رفع أسعاره ذات صيف.

أزقة في حارتنا تنام عند نوم آخر شاب كان قد وصل للتو من سهرة في مقهى زهران مع رفاق الزهر والعجمي وثمة آخر عاد من بيت صديق بعيد كان قد قال لوالده إنني أدرس معه كيمياء المرحلة.

في تلك الأزقة مواسرجي الحارة وكهربجي الحارة ومصلح الثلاجات الذي ما دعوناه لثلاجتنا ذات خراب إلا وزاد الطين بله، وفيها مصلح الراديوهات واسمه أحمد ترانزستور، وفيها صاحب البك أب الذي دائماً ما كان يتحمل فقرنا ذات رحيل، أو عندما نشتري طقم الكنب من الجورة، وفيها صاحب البقالة وهو دكنجي الحارة وسمّانها وهو الذي يشتري من أمهاتنا علب "التوفي والناشد" عندما

تأتينا في مناسبة عابرة ويستغل كثرها ويقلل سعرها، وأذكر أن حَجة من حارتنا قد أعادت للبقال علبة توفي بالخطأ وعندما فتحها البقال وجد بداخلها دفتر العائلة وفواتير الكهرباء والماء ووصولات لمستشفى البشير وصورة شخصية لرب الأسرة كان قد أخذها أمام الجامع الحسيني ذات يوم.

على أسوار أزقتنا هناك ملصقات لمرشحين غابرين منذ زمن، وإعلانات لبيت للإيجار أو شيخ يعمل الحجامة ويطلب الدعاء، وخرابيش لمراهقين قد بلغوا سن الحب للتو، وجدران مرهقة وزركشة طبيعية كونتها أحبال الغسيل على بلكونات تطل عليها.

أرواحنا قد تعلقت بعمان وشوارعها وسكنت قلوبنا وتعشعشت في ذاكرتنا إنها المدينة الأجمل والأروع والأحلى، ولا زالت أزقتها تنادي أن يا رفاق الضوضاء لا تبتعدوا عن المكان حيث إن ضوضاءكم صفاء الروح.

وعبق المكان
و قربكم حياة

في سقف السيل

تجار من كل الأصقاع، وأيمان غليظة، وخردوات وملابس مهترئة، وأشياء لا تلزم ووجوه أتعبها الزمن، متشابهة، لون واحد وشعر غير مصفف ولحى مهملة وأسنان صفراء وسيجارة محلية الصنع وزعت الاصفرار على السبابة والوسطى.

كل يوم جمعة أشاهد نفس الأشخاص ونفس الزبائن، والغريب أني أشاهد نفس الخردوات والبضائع، لا شيء يتغير، ولا أرى سوى جمود الروح في المكان.

سوق للكلاب وسوق للحمام وسوق للخردوات والعطورات والخضار والبالة والهواتف النقالة واللحوم والدجاج والأسماك.

لسقف السيل (قلب) ويسمى الجورة، وهي قطعة أرض فارغة تمتلكها وزارة الأوقاف، وهي في أيام الأمن كراج سيارات، وعند مغادرته تصبح سوقاً سوداء للأثاث والموكيت المستعمل وأقراص مدمجة لأفلام رديئة.

و لسقف السيل (رئتان) إحداهما شارع الطلياني، وثانيهما شارع طلال، ولكل شارع حكاية لا تنتهي، وفصول قصة عمانية مورثة منذ أن قام الملك المؤسس طيب الله ثراه بالصلاة في ساحة الجامع الحسيني في جمعة عمانية قديمة.

يأسر قلبي هناك منظر البسطات التي تحوي الخردوات وما جادت به حاويات عبدون، حيث من السهل أن تشاهد:
نصف شريط لأم كلثوم، وأصبع أحمر شفاه مستعمل، وزجاجة عطر فارغة، وبراغي متنوعة، وقرص صلب لكمبيوتر قديم، وعلب مخلل فارغة، وقطع غيار سيارات، وأسلاك وقطع مواسير.

يأسرني هذا المنظر وأستغرب من تزاحم الناس على تلك البسطة، وأستغرب كيف تقلب سيدة عبدونية بكامل زينتها الأشياء وتتلهف علها تجد ما فقدته منذ زمن.

ما يزعجني هي تلك الرائحة المنبعثة من فتحات تركتها أمانة عمان في سقف السيل ووزعتها في وسط البلد لتقول للمارين هنا إن في عمان روائح للماضي المعتق.

سقف السيل يتوسد خاصرة عمان، وتحنو عليه تلالها، ويختصر الحب بين الأشرفية وجبل عمان، ويوزع الناس للشرق والغرب، وعلى أهدابه يخط الناس صباحهم المشرق بالأمل، ورائحة تصنع في مخيلاتهم حياة.

يمتد مثل أفعى تتلوى ويتباهى بأحجار مبانيه المصفرّة، وقارمات إعلانية قديمة، وأعمدة تجعدت أطرافها، وأسلاك هاتف وكهرباء تعرض للناس طائرات ورقية كانت قد التصقت هناك ولم تبرح مكانها منذ زمن.

كم أعشق تفاصيل عمّان وحواريها وسقف سيلها وتلالها المغطاة بالإسمنت والزجاج وألوان بيوتها المزركشة بفعل السنين الغابرات.

مات وسط البلد

في الماضي كانت منطقة وسط البلد في عمان عبارة عن طريق إجباري لكل الموظفين والطلبة والعمال وأصحاب المحال والشركات ورجالات الشرطة وشيوخ العشائر، وكانت لوسط البلد في القلوب لوعة وحب لا ينتهي، وكانت تصيبنا فرحة لحظة الوصول هناك.

كان سوق الحرامية قد أعطى وسط البلد رونقاً خاصاً، هناك قد اختلط ابن البلد مع المصري والعراقي والتركماني والغجري، وشكلوا لوحة قد أبدع رسامها، وبسطات من كل شيء قد توزعت مثل لوحة سريالية، وسوق للخضار لا زال صامداً برغم التكنولوجيا المفرطة في الدجل وبرغم الغش الذي زار الروح منذ مدة.

وسط البلد الآن شبه مهجورة من زوارها القدماء ولم تعد طريق الناس وملاذهم حيث شقت أمانة عمان الطرق حول عمان وأراحت الناس من وسطها أو ربما أراحت وسط عمان منّا، وكذلك أصبح لكل منّا مركبته الخاصة، ويذهب بها لعمله لكي يزيد الأزمة في الشوارع الأخرى، لكي تبقى وسط البلد مفرغة من أرواحنا.

مات سوق الحرامية القديم واستبدلناه بأسواق كبرى للحرامية، وماتت سينما ريفولي والحمرا وبسمان والحسين واستبدلناها بـ (الدي في دي والسي دي) وبسطات تبيع الأفلام التي لم يمثلها ممثلوها بعد، ومات سوق السكر حيث هرب التجار لأطراف عمان ومعهم السكر والأرز ورائحة عمان القديمة.

ما عاد السرفيس وباص المؤسسة هما وسيلة النقل، وما عاد لوسط البلد وسط ولا أطراف، ولا عاد بهجة لطلوع المصدار أو طلوع الجوفة أو المجمع الجديد، حيث كان هدم مجمع رغدان المسمار الأخير في ذاكرتنا التي دفنتها أمانة عمان إمعانا في التطور وتكنولوجيا الإسفلت ودهان الأرصفة الذي بلا لون ولا طعم ولا رائحة.

لا زال في جعبة أمانة عمّان الكثير، وقد سمعنا قبل مائة عام أنهم سيهدمون المجمعات التجارية التي بين شارعي الملك طلال والهاشمي، وسيهدمون المجمعات على جهة اليمين والمجمعات على جهة اليسار وسيهدمون المجمع الجديد، لأنه قد فشل وسيهدمون جبل القلعة وشارع السلط وشارع بسمان والرينبو، وسيهدمون منطقة رأس العين والنظيف والجوفة وأجزاء من الأشرفية وجبل عمان واللويبدة وكل وادي عبدون والمهاجرين، حيث ستصبح هناك ساحة من الإسمنت يتوسطها المدرج الروماني إذا ما نسوه ولم يهدم خلسة.

مستشفى البشير

من منا لم يزر مستشفى البشير إما مريضاً أو زائراً لمريض أو ماراً من الأشرفية بوسطها مختصراً الطريق، إنها معلم تاريخي منذ طفولتنا وما قبل ذلك، ولكل منّا حكايته التي لا تنسى على أطرافها المترامية.

فيها قسم الطوارئ الذي لا يهدأ، والذي يعج بالمصابين من كل أطراف عمان، شغب، فوضى، مشاجرات، حوادث، حرائق، سقوط، انتحار، إطلاق رصاص في أعراس،

دهس، اختناق، غرق، ولهذا القسم حالة خاصة لا تنتهي من الفوضى والصراخ ورجال الأمن القادمين من مراكز الإصلاح والتأهيل، وأناس اتسخت ملابسهم بالدم، وشيوخ كبار متعبون وحجّات بلا أسنان ولا عيون وفي أقدامهن سكر، وسيارة إسعاف كل دقيقة وزوامير مزعجة وشركة خدمات وزعت عمالها بكثرة هناك وأطباء وممرضين يافعين قد دخلوا سن الحب للتو.

مستشفى البشير ليس كما يدعون، بل إنها مركز للخبرات، ومدرسة للطب وجامعة للممرضين، وحيث يأتيها الأطباء لا يعرفون سوى مرايلهم وسماعاتهم والكبرياء، وعند دخولهم البشير يخرجون منها علماء عظماء كبار، فمن السهل أن تجد طبيباً في البشير قد جبر مائة كسر في اليوم الواحد، وممرضاً قد أعد الجلوكوز ألف مرة في اليوم.

إن مستشفى البشير مصنع للطب والمصدر الأساس لكافة تخصصات الطب والتمريض والصيدلة في المملكة برمتها، وهنا أود أن أفرق بين العناية والعلاج فمن أراد علاجاً فهذه مستشفى البشير أمامه وببلاش، ومن أراد عناية فهذه المستشفيات الخاصة أمامه وفيها غرف مكيفة وتلفاز وثلاجة خاصة تحوي الفرح والسرور وفيها فاين مزركش، ومكان لاستقبال الورود وكراسٍ وهدوء وممرضات جميلات وانترنت وفاتورة كبيرةً ودكتور غائب في عيادته لا يأتي إلا بالطلب.

و في السياق أود أن أذكركم بأن نجد لأطبائها وإدارييها عذراً على كلمة لا توجد أسرة أو موعد متعب لما بعد الأربعة أشهر، فعلى عاتقهم زخم لا يطاق وأعداد مهولة من المرضى والمصابين والمراجعين.

تمرّد على الصيف

منذ أيام بدأت تتساقط أوراق الشجر، وبدأ يسرقها الخريف ومعها تهدأ الأرواح وتخلد للسكينة هرباً من ضوضاء الصيف وأصوات الألعاب النارية التي منعتها الحكومة في وسط البلد فقط، ويشتريها جيراننا أصحاب الأفراح من البقالات في الأماكن الأخرى.

تخلد الأرواح هرباً من المشاجرات التي أصبحت فوبيا، وانتشرت وانتشر معها السلاح وصوته الرديء، والإصابات التي تتوافد على مستشفى البشير من كل حدب وصوب وكأننا مللنا من عمّان وأردنا أن نرهق صيفها المتخم بالسيارات والضجيج ونلقي بأثقالنا على كتفها الحنون.

تخلد الأرواح بعيداً عن الأطفال الذين يلعبون الكره فوق سيارتي، ويتنافسون في ألعابهم تحت عجلاتها، وعن صراخهم الفوضوي، وعطلتهم المدرسية التي يقيمون طقوسها على أطراف منزلي بنهارها وليلها.

تخلد الأرواح وقد قاربت عمّان تنهي عرسها الانتخابي والذي زرع زينته على الإشارات والتقاطعات وصور لمرشحين على إشارة قف وممنوع الوقوف وأعطي الأولوية، وعلى زجاج منزلي، وصورة التصقت في نظارتي التي كلما رفعتها على أرنبة أنفي تدلّت مثل نظارة عجوز عالم في الذرة.

تخلد الأرواح مع نقص تام في محصول البندورة والفلفل والزيت، وتجار يتحكمون في أسعارها، ويرشحون نفسهم للبرلمان مطالبين الحكومة الحد من الغلاء الفاحش.

تخلد الأرواح من ضجيج بائع البيض وبائع الحليب وبائع الخضار وذاك الذي يدخل أزقتنا طالباً شراء كل ما لا يلزمنا، وذاك الشخص الذي يبيع الأحشاء وقد وضعها في براميل سيئة المنظر وكثيرة الذباب.

تخلد الأرواح هرباً من صيف ثقيل، ومدينة تعجّ بأهلها، والمغتربين الذين اشتاقت أرواحهم لسقف السيل، وغرباء قدموا لعمّان بحثاً عن مدرجها الروماني وقلعتها ومآذنها المفعمة بالتاريخ البعيد ومراحل قد تلونت فيها أحجارها المتعبة.

تخلد الأرواح لشتاء جميل وتوقيت شتوي يعطينا الدافع للنوم والهدوء، ونهار بارد وكاز وغاز وفاتورة كهرباء وكستناء وجاكيت مخبأ لا يغسل إلا في الصيف، وصوت قطرات المطر على شباك سخيف كان لفرط الإحكام يعطي البيت جزءاً من هبة الله للبشر.

تخلد الأرواح، وتسكن تحت لحاف دفيء وأحلام نراها كل ليلة لصيف قادم، وضوضاء أخرى تلوح بالأفق.

جامع الختيارية -المضافة

جامع الختيارية هو المضافة التي يبنيها أهالي كل حارة أو حي، وكانت مضافتنا عبارة عن غرفة يتوسطها كانون نار، وعلى جنباتها فراش عربي مهترئ كان قد أكل الدهر عليه وشرب، وهو مليء بالثقوب جراء تطاير الشرر من النار الموقدة في الوسط، ولها جدران حجرية أسودت لهول الدخان المنبعث وهول السنين العابسات، ولمبة في الوسط لا تنير إلا داخلها، ومسامير دقت بعشوائية هنا وهناك ليعلق أجدادنا عليها عباءتهم وعصيهم وأشياءهم الأخرى . كان هناك مهباش ومحماس وإبريق شاي تأكل من كثرة السواد على حوافه، وكاسات شاي، لا أذكر أنهم غسلوها يوماً،

وزاوية المونة، وفيها يجمعون أكياس السكر الورقية والشاي، وثمة ضمة مرمية منذ خمسة أعوام مرّت.

كانت الأفراح تقام في مضافتنا وفيها تقام بيوت العزاء والجاهات والعطوات والخطوبة وحكايا اللجوء والنزوح والبنادق والمغائر والمقاثي والحرب والسلم، وفيها نشرات الأخبار السياسية والاجتماعية، وكانت المضافة برغم صغرها تتسع لضوضائنا وصخبنا، وكان ينام فيها ضيف قدم للتو من الكرك، وكان يقصد مستشفى البشير للعلاج، كنّا أطفالاً عابثين، وكنّا نقف على أطراف شباك المضافة بقصد الإزعاج والصراخ لكسب مزيد من الشتائم من أجدادنا الذين لم يكونوا يعرفوننا لكثرة الدخان المنبعث من داخل المضافة، وكان شغبنا يصل لحد العبث بأشياء المضافة، المقدسة وقت صلاة أو فرح عابر.

لم نكن نعرف الصيوان، ولا بيت الشعر، ولا الجمعيات والصالات، لم نكن نعلم ولا نعرف سوى المضافة التي تزوج فيها كل آبائنا وأعمامنا وأقاربنا، وفيها كان بيت العزاء لمن توفي منهم، وفيها يحط الضيوف رحالهم حيث لا خلاف واختلاف ولا نفاق.

هدمت أمانة عمّان المضافة منذ مدة وأصبح مكانها موقفاً لسيارات الغرباء، وأصبحنا نحن غرباء في أثرها وذكراها التي تعشش في الذاكرة منذ أن توفي جدي وهو يبحث عن الحطب لموقدها، ومنذ توفي جدي الآخر وهو يكسّر الحطب لنارها ومنذ أن مات آخرهم متأثراً بدخانها.

مطعوم ضد الشرف

لا زالت الزعرنة في حارتنا تأخذ نفس المنحنى ونفس الأسلوب ونفس الشكل وإن تغير المضمون، فالأزعر بطبيعته ولكي يكون أزعر لا بد أن يكون صاحب فم أعوج ولكنة فيها شيء من المد والحشرجة ولا بد أن يكون صاحب وشم متعدد على أطراف جسمه وإسوارة جلد في يده اليمنى.

و كي تكون أزعر لا بد أن تكون صاحب إسباقيات وأحكام وسجن وكلما كثرت قضاياك وأحكامك تكون قد كبرت قيمتك في سوق الزعرنة.

الخمور والمسكرات في الأردن تباع علناً، وتوجد لها أماكن مخصصة لذلك، ولكن الشخص الأزعر يتعاطها خلسة، وذلك لأنه تعود حتى أن تكون كل حياته خلسة.

في قاموس الدواوين أو الزعران هناك لغات خاصة ولكنات وألقاب لا تجدها إلا في هذا القاموس ومنها أن فلان منهم (مطعّم) أي أنه قد وصل لمرحله متقدمة وأخذ مطعوماً خاصاً ضد الشرف، وبعد المطعوم يسمح لرفاق السوء والزعرنة بشتمه في أهل بيته وعرضه دون أن يتحرك له جفن أو يندى له جبين، وكثيراً ما نسمع عن مداعبات بينهم وفيها أقبح الشتائم التي تنهال على الأم والأخت وبأبشع الأوصاف وذكر كلمات مخجلة وتلصق بالأخت أو الأم التي أكرمها الله وأعزها في كتابه الكريم.

أصبح هذا المطعوم متداولاً بين أغلب شباب هذا الجيل من زعران وطنطات وطلاب جامعات وكليات وسائقي باصات وتكاسي وجماهير كرة وأقارب وأصحاب وعمال شركات

ومؤسسات، ولا زال جيل اليوم متهاوناً في هذا الأمر لدرجة تجعل الحليم حيراناً.

وهي دعوة لكل أب وأم ولكل عاقل للحد من هذه الظاهرة التي باتت تؤرق المجتمع ككل وتطهير اللسان من بذيء الكلام والتعفف عن الكلمات التي تجرح الحياء وتسيء للذوق العام والأخلاق.

□

راكضون خلف الذهب

في كل حي من أحيائنا هناك شلة من الناس، متخصصون في البحث عن الذهب، وتجد لهم قصصاً غريبة في رحلات البحث المضنية، وجميعهم لهم حكايا مع الجن ومع الشيوخ المغاربة والرصد والأفاعي المحفورة على الصخور، ولهم عدد خاصة من الفؤوس والمجارف، وربما حدثكم أحدهم عن أنه استأجر جهازاً للكشف عن الذهب بإصدار تنبيه على شكل زامور ما، وربما حدثكم أيضاً أحدهم عن البحث بالقرب من سكة الخط الحجازي أو في أمكنة تتواجد فيها القصور الرومانية أو البيزنطية أو بعض الآثار التركية ومخلفات الأمويين وغيرهم.

قصص متشابهة لنفس الشخوص في كل قرية وحي ومدينة وربما بلد، نفس الحكايا ونفس القصص ونفس الروايات ولا بد سمعنا من أحدهم أنه كان قاب قوسين أو أدنى من الكنز ولظروف ما أجل عمله للغد وعند عودته وجد أن كل شيء قد ذهب.

تجد أن الباحثوين عن الذهب جميعهم يعانون من أمراض نفسية وعندهم مشاكل مع زوجاتهم ويعيشون حالة فقر قوية وكلهم مديونون وفي (زنقة) مالية وربما منهم من فقد إيمانه بالقضاء والقدر وبتقادير الرزق من عند الله.

موروثهم متتالٍ منذ عهد بعيد، وهم نفس الأشخاص لو تغيرت أشكالهم وصفاتهم وأعمارهم.

أنا شخصياً خضت تجربة البحث عن الذهب ذات فقر وجوع، وكنت مثل المجانين أستيقظ عند الساعة الواحدة فجراً وأحمل العدد واللوازم في كل أنواع الأجواء من حر وبرد ورياح، وكنت أخوض التجربة مع رفاق الفقر دون تعب أو ملل ودونما فقدان للأمل، وأذكر حفرة حفرناها تتسع لمركبة كبيرة وفي النهاية لم نحصد إلا الإرهاق والتعب والكد والعرق.

هي تجربة لعالم آخر، عالم من العاطلين عن الأمل والعمل، وهم أناس تشبثوا بالوهم والحلم، وتعلقوا بحبال هواء اسمها دفائن وكنوز وحلم بعيد بالغنى السريع.

أنا شخصياً لا أؤمن بأي نوع من هذه الأكاذيب، وعندي إيمان مطلق بأن الرزق هو مقدر له دون عناء، وما يكتب لك سوف تأخذه برغم أنف الرصَد وكل شيوخ المغرب والمشرق.

ما دفعني للكتابة عن الذهب والدفائن هي رواية رواها لي صديق عمل صباح اليوم، وقال لي إن هذه الرواية حصلت معه بالأمس وهي نفس الرواية التي سمعتها ألف مرة قبل روايتها منه إنها قصص متكررة لنفس الحكاية وتكاد تكون حلقات لمسلسل سيء الإخراج ممل ومقيت.

متى سيؤمن الباحثون عن الوهم بقضاء الله وقدره وبالرزق أنه مكتوب في لوح محفوظ؟ ومتى سيدركون أن كل هذا التعب والإرهاق لم يجنِ لهم سوى المتاعب ومطاردة رجال الأمن وأعين الناس، وسيجلب لهم هدراً فيما تبقى لهم من مال وما تبقى لهم، صحة ونشاط؟

هل من المعقول أن تكون وصلت الأمور عندهم لحد الإدمان؟؟

ربما ....

دكان أبو توفيق

دكانة (أبو توفيق) هي اسم لبقالة كانت منذ ستين عاماً في وادي عبدون، ولا زالت، ويملكها رجل فاضل اسمه أبو توفيق، وتقع في حارتنا، وكان لها دور اقتصادي مهم في حارتنا منذ زمن، حيث كانت هي نفسها البقالة ومحل الخضار ومحل الأحذية ومحل الأدوات المنزلية والصيدلية ومحل مواد البناء والكهربائيات والمكتبة وخلاف ذلك كثير، فمن السهل أن تجد في هذه الدكانة أحذية وأدوية ولحوماً ومسامير وصوفاً وحريراً وحبوباً ودفاتر وأقلاماً وزيتوناً وأضوية ودخاناً وشنابر.

بدأت دكانة أبو توفيق بالأفول حين قرر مالكها عدم التجارة بالدخان، وبدأت مبيعات هذه الدكان بالتراجع حيث إن الدخان هو روح الدكان، وثم إن المدخن حين يأتي طالباً دخاناً فانه يشتري أشياء أخرى ويعود ذلك بالفائدة على دخل الدكان.أجمل ما في حكاية الدكان هو دفتر الدين حيث إن أغلب أهل الحارة كانوا مديونين للدكان وبمبالغ متفاوتة وحسب قدرة المدين، وأعلم أن بعض المدينين لا زال إلى الآن عليهم مبالغ مترتبة منذ سبعينات القرن الماضي.

كان في الدكان رف مخصص لعلب التوفي والناشد وأطقم الكاسات المعادة من مناسبات الناس، وكانت هذه الأشياء تتكرر وهي نفسها لعدة أعوام، حيث إن العائلة التي كان لديها مناسبة ما كان الناس يزورونهم ومعهم هدية هي عبارة عن علبة توفي أو باكيت ناشد أو طقم كاسات، وكانت العائلة تجمع هذه الأشياء وتعاد للدكان بسعر أقل وهكذا دواليك.

هناك في الدكان أرفف وطاولة شابت واخضرت واصفرت لفرط الكبر وهول الزمن ولكثرة ملامسة الأيدي لها وتلك الطاولة الخشبية لها واجهة زجاجية وأرفف كذلك وتشاهد منها هول الفوضى في ترتيب أكياس الشبس وهي مبعثرة وقد تعددت ألوانها وأحجامها.

في الدكان قهوة بطعم الصابون، وبهارات بطعم السيرف، وتداخل غريب في النكهات بسبب تقارب الأرفف وتلاصق الأصناف، حيث تشاهد كرتونة لقهوة بجانب رف للصابون النابلسي المعتق، وتشاهد كرتونة سيرف على كيس أرز وقد وضعت للسرعة في البيع.

في الدكان حبل صغير توسط المكان وقد علق عليه أصناف كثيرة من ألعاب الأطفال وهدايا العيد، وتجد صعوبة في مشاهدة الألعاب بسبب الغبار وبعض الأتربة التي تدخل دون إذن وقت الصيف.

وفي الدكان قتلنا أفعى وفئراناً كثيرة وقططاً سماناً، وهناك حفرة تطل على بئر قديم أسفل أرضية الدكان والبئر هو من أسرار الدكان وأسرار عمي رحمه الله وهو مالك المكان الذي يحوي الدكان.

وفي الدكان رف بعيد قرب السقف وهو على يمين الجالس على كرسي المبيعات وهذا الرف يحتوي على أشياء قديمة جدا، وأجزم أن أحداً لم يمسها منذ عقود، وتجدها غارقة في الغبار وبيوت العنكبوت، وتجمع لدفاتر دين قديمة وبعض الأوراق المهمة، وعلبة توفي مليئة بفواتير كهرباء منذ زمن.

رفض أبو توفيق إدخال التكنولوجيا إلى دكانه العتيقة فرفض وجود الآلة الحاسبة، واستعان بدل ذلك بمجموعة من الكرتون المسترجع من كراتين البسكويت، وقصها بشكل مستطيل ليقوم بجمع حساباته عليها وتجد أمامه قلماً قد ربط بخيط خوفاً من عبث الأطفال.

وفي الدكان برميل بحجم وسط على يمين الداخل من الباب، وتجد معظم أوراق البسكويت وأكياس الشيبس حول البرميل وليس بداخله حيث إن عملية تنظيف الدكان كانت تتم مرة واحدة كل صباح حين تأتي أم توفيق لتظيف الدكان بالمكنسة ورش رذاذ الماء لتخفيف حدة الغبار المنبعث من الأرضية المتعرجة والتي تحوي عشرات الحفر.

كان لأبي توفيق ثلاثة كراس للضيوف الكبار، وهي مصنوعة من كراتين البيض الفارغة ومربوطة بشكل جيد وتكون ذات منظر جميل ورائع حيث تصنع عن طريق وضع خمسين كرتونة بيض بطريقة (التصفيط) وترص جيداً لتكون في النهاية كرسياً صغيراً. للدكان رائحة لا توصف في الصباح وعند فتح الباب وهي رائحة لخليط الفلفل الأسود والبهارات والصابون والسيرف والقمامة البايتة منذ الأمس، والثلاجات المطفأة وللشوكولاته التي أرهق جنباتها الصيف، ولعلبة سردين سال زيتها على أطراف الرف، وحبة بسكويت لم يكملها طفل لرداءة طعمها فرماها تحت الطاولة وهرب.

للدكان ذكريات راسخة في عقولنا وقلوبنا ولم تنته بعد.

في المقر الانتخابي

مقرات المرشحين الانتخابية حالات متكررة ومواصفات تتشابه مهما اختلفت بالحجم والشكل ويبقى المضمون هو نفسه منذ أول انتخابات شهدتها المملكة عام ١٩٨٩.

أهم شخص في المقر الانتخابي هو العرّاب وهو في الأغلب رئيس لجنة المؤازرة وبيده قرارات شراء مستلزمات المقر وأوامر صرف أجور العاملين ومتابعة اليافطات والبكبات والكنافة وجرد الهويات وإحصاء الأصوات وكثيراً ما نشاهده يقترب من المرشح ويهمس في أذنه (أبشر لحد الآن وصلنا ستة آلاف صوت)، والرجل الثاني في المقر هو كبير المستقبلين والذي يرحب بالضيوف العابرين ويلوّح بيده لحامل دلة القهوة ويغمز له بعين واحدة أن هناك ضيفاً أتى للتو، وفي المقر الانتخابي شلة (اللفيفة) وهم مجموعة أخذت على عاتقها مؤازرة كافة المرشحين في الدائرة والدوائر المجاورة وشعارهم الأهم (إرضاء الكل) وهناك شيوخ وعجزة وختايرة وهم المفاتيح، حيث إن كل واحد منهم مفتاح لعائلة ما أو منطقة ما وسرهم بيده ويجمعهم بكلمة، وهؤلاء المفاتيح لا يقدر المرشح على إغضابهم وعند حرد أحدهم يذهب لبيته المرشح نفسه لإرضائه واستقطابه من جديد.

وفي المقر الرجل المسؤول عن حركة السيارات وهو من يلوح للقادمين بسيارتهم للوقوف أمام المقر وبشكل عشوائي لإظهار الفوضى وبيده قرارات مهمة تتعلق بالباصات والدعم اللوجستي والنقل.

كل هذا في المقر الانتخابي، ولكني لم أجد في المقر الانتخابي الناس..

لجان العمل

بدأت اللجنة الكبيرة والتي شكلتها لجنة أكبر بتشكيل لجان للعمل، وبدأ التخطيط لتفريخ لجان فرعية تقوم بدورها في تشكيل لجان يناط بها عملية تشكيل الوضع النهائي للمسؤولين عن اللجنة الصغيرة، والتي ستتكون من شخصين في الأغلب، وكل منهم سيترأس لجنة لاختيار أشخاص مهمين لقيادة دفتي العمل، وبعد اجتماعات وجلسات وحوارات ومؤتمرات ومايكروفونات وسماعات يقرر هذان الشخصان استئجار عمال وافدين أو طامعين أو متسلقين ويسلمونهم الغاية والوسيلة وينسون الهدف.

تتكاثر اللجان وتتفرخ وتتوالد ويكثر المؤيدون والفوضى والمحبون والمنافقون ولا نجد العمل، لا هدف ولا إرادة ولا طموح، من قتل فينا روح الطموح؟ وإرادة العمل؟ ومن أخفى عنّا الهدف؟.
هل لأن الليالي باردة قد فقدنا حرارة الروح؟
من يجرؤ على قول الحقيقة، دون تملق أو نفاق؟
من يجرؤ على التكلم في غياب الوعي؟
في محصول (البصل) هناك القنّار والفحل، والقنّار هو رأس البصل الصغير، والفحل هو رأس البصل الكبير، وحيث إننا شعب تعود أن يكون رأساً فنحن فحول ولا قنّار بيننا، والفحل لا يقبل أن يكون جزءاً مهملاً في تفريخات لجان مهملة، ولا يقبل دوراً هامشياً يناط به، كلهم هناك رؤوس وبشوات وأساتذة ويريدونني أن أكون القنّار الوحيد بينهم،

نعم سأقبل حتى لا أناقض نفسي، ولكني سأختار هدفي (حيث أني أمتلك هدفاً يقتل طموحهم).
فيهم مدير اللجان، ومسؤول اللجنة الأولى، ومدير اللجنة الثانية، وكبير اللجنة الثالثة، وعرّاب اللجنة الرابعة وخبير اللجنة الخامسة ومقرر اللجنة السادسة، وفتوة اللجنة السابعة، وفيهم أعضاء اللجان الجالسون على الأرائك ينظرون وبيد كل واحد منهم قلم وورقة للخرابيش وتدوين ملحوظات عن حرب الفيتنام ومسلسل أبو جانتي وباب الحارة ودور الحارة وأسوار الحارة ومداخل ومخارج الحارة، وفيهم سكرتير لكل لجنة ومقرر ومحاسب وسائق بكم اللجنة وشوفير المدير ومدير الحسابات والرياضيات والجغرافيا والتاريخ.
فيهم كل شيء من أي شيء ولا يوجد فيهم الروح..

سيارة الخردة

عندما كنّا صغاراً كان هناك سيارة بك آب تشتري وتجمع الخردوات وتدور في أرجاء عمان وكانت وحيدة لا غيرها وكانت تأتي لحارتنا يوماً واحداً في الأسبوع وكانت حصة حارتنا يوم الأربعاء من كل أسبوع وكنّا ننتظرها بشغف.

تشتري السيارة كل شيء من خردوات حارتنا وتشتري قضبان الحديد المهترئة وعلب الصفيح والشباشب البلاستيكية وأسلاك النحاس وعلب البيبسي الفارغة وصحون وطناجر ألمنيوم مطبقة بخبث كان قد باعها رب أسرة ذات طفر وأعلن أمام السيارة بأنه باعها ليسر حال وأنه سيجدد أغراض المطبخ فقط.

كان الأطفال العابثون أمثالي يسرقون الأحذية من هنا وهناك، وكنا نجمعها مع بعض خردة الحديد والألمنيوم وبواقي علب الصفيح، وكان لكل واحد منّا مكان يخزن فيه ما جاد به السيل لحين حضور سيارة الخردة.

كنا نبيع أشياءنا لسيارة الخردة خلسة ونستحي من الوقوف أمامها خوفاً من أن يشاهدنا أحد من أهالينا، لأنه إذا ما شاهدنا أحد فإنه يتحتم علينا الجلوس لساعات طوال أمام لجان التحقيق المكونة من الأب والأم والأخ الكبير إن وجد وأحد الأعمام وتكون جلسة تحقيق ومساءلة وحلف يمين بأن أحدنا لم يمس أي شيء من أشياء بيتنا.

كنت أنافس جميع الأطفال في حجم مبيعات الخردة وكنت أكثرهم جمعاً للخردة والمال، وأذكر أن أكبر مبلغ حصلت عليه كان أربعة دنانير دفعة واحدة، وكان رقماً مهولاً جداً بالنسبة لي وبدون أدنى وعي ركبت سرفيس حارتنا وتوجهت لوسط البلد واشتريت أشياء كثيرة وخضروات حتى ما عدت قادراً على حملها، ولم تسألني أمي وقتها من أين لك هذا لفرط الحاجة ولتعب السنين اليابسات.

كان هناك طفل واحد ينافسني في جمع الخردة واسمه علي عبد الهادي، وأذكر أنه باع لسيارة الخردة بمبلغ ثلاثة دنانير ونصف مما جعلني أموت غيضاً وأتفجر حسداً وبغضاً حيث كنت أمكت طفولة هذا العلي لأنه أيضاً كان يسبقني في بعض الأحيان على تجمع النفايات (المزابل)، وفي بعض الأحيان كنت أشاهده قبلي عند حاويات عبدون الجميلة والمنسقة والتي كانت تحوي لنا الفرح والمفاجأة لأن ثمة في كل كيس مفاجأة وتكون العملية كلها أنت وحظك.

تمر السنون العابسات ولا زلت أذكر سائق سيارة الخردة الذي كان يتفاجأ بجمال خردواتي ويسألني بخبث (وين لقيتهم يا شاطر) في إشارة واضحة بأنه يريد أن يسرق المكان مني لكني كنت أشد خبثاً منه حيث كنت أقول له:

أنا اشتريتها من الأولاد.

سنون مرت ولا زلت أذكر أحمد أخي وجلال ويوسف الفحل حيث كان أحمد يترأسهم في رحلات الغزو على حاويات عبدون وكيف كان في كل مرة يأكل حقهم ويأتي إلينا بكيس مليء بالألعاب والأشرطة والشمع، وأذكر مرة أن أحضر لنا جاتوهات وكيك وبواقي طعام فاض ليلة عيد، وكان أبي في كل مرة يقول له : والله إنك شاطر يا أحمد.

ومن القصص المضحكة التي حصلت مع أحمد أخي وجماعته أن شاهد جلال طرف مسجل لونه أحمر ظاهر من طرف الحاوية وكان جلال الأقرب للحاوية فصاح بقوة : (يا الله مسجل) فأسرع باتجاه الحاوية ولكن قبل وصوله بأمتار لاحظ موجاً هادراً من خلفه مع صوت وحش قد انقض عليه وطرحه أرضاً وسبقه للمسجل والتقطه بقوة وظل مسرعاً حتى وصل البيت غير آبه بما حصل لزميله الذي وصل متأخراً بعده ويعاني من رضوض وخدوش في كل أجزاء جسمه.

سنون عابسات يابسات مرت علينا وكلهن تعب ممزوج بالأمل الموعود والغد الجميل الذي كان يزورنا في أحلامنا المتنوعة فكان حلمي أن أقهر الفقر اللعين وأدوس عليه بقوة المثابر ومن الفارقة أن الطفل علي عبد الهادي كان يحلم أن يصبح تاجر خردة كبيراً وكان، حتى يقهر تاجرنا القديم

الذي كان يضحك على طفولتنا ويسلبنا أشيائنا بأبخس الأثمان.

مرت السنون على مهل على مهل حتى تعششت الذكريات في أطراف العقل والبال وكانت حكايات لا تنسى .

ليالي الشتاء في عمان

كان الشتاء في الماضي له وقع خاص في قلوبنا، وكان يسحرنا بجمال لياليه وكنت أستمتع بتجمعنا حول مدفأة (الفوجيكا) واختلافنا على الخبز المقرمش والبلوط والبطاطا، صوت المطر يداعب الصفيح والزجاج وأكياس قمامة تركت في الخارج على عجل، وصوت الرعد يهز أركان غرفتنا الوحيدة وبركة ماء صغيرة تكونت عند الباب وابن عم أتى للتو ليشاركنا الدفء والبلوط .

التلفاز في زاوية الغرفة وغطته أمي خوفاً عليه من نقاط الماء التي تدلف من السقف وشاشة متعرجة ومشوشة تشير للقناة الأردنية وكنا لا نعرف غيرها في الشتاء حيث إن قناة ٦ كانت تتوقف مع حبات المطر وأصوات الرعد، كانت نشرة الأخبار مملة وكنا ننتظر المسلسل بشغف مع أننا حفظنا مشاهده عن ظهر قلب لكثرة تكراره .

برد قارص، ضباب، التصاق، وقوف بجانب الشباك لمشاهدة مناظر اندفاع الماء من قمة جبل يقابلنا، وصوت خريره يداعب أسماعنا ويصدح فيها مثل صوت فيروز في

صباحات عشق، مراقبة حثيثة لتحركات الناس من حولنا حيث يزيد الطلب على الخبز والكاز والغاز والدفء .

في الصباح تنطلق العصافير من حولنا مطلقةً زقزقاتها الجميلة وباحثة عن رزقها بين أفنان حيِّنا الفقير وننطلق نحن لتفقّد أطراف بيتنا وسطحه من آثار الأمطار وفي كل يوم شتاء كان لا بد لنا من تعديل مسار الشلالة التي تتدفق على باب بيتنا وتحضر معها الطين والأحجار والأشواك ، وتتدفق المياه من المناهل والمصارف وتعج حارتناً بالفوضى والذهول .

تعطل المدارس وينادي أحد كبار المسؤولين عبر الإذاعة كل رئيس جامعة مسؤول عن دوام جامعته وحسب مقدار الشتاء وتعلن حالة الطوارئ ويقف بك آب ذو نمرة حمراء مقابل بيتنا وفيه أربعة موظفين مناوبين لمراقبة الخلل الذي يحدث كل شتاء ويتكرر في الشتاء الذي يليه وتلف في شوارعنا سيارة أخرى حمراء لشركة الكهرباء وتنقطع الكهرباء.

تنقطع أخبار العالم عنّا ولم نعد نشاهد التلفاز ولا ندري ما يحدث في وسط البلد أو حي نزال ونلملم ما نجد من بطاريات لمحاولة سماع الأخبار من راديو عتيق خبأناه لحاجة أو لحرب، وفي الصباح يصرح الناطق باسم دائرة الأرصاد الجوية بأن الأمطار التي هطلت على عمان كانت ٢٠ ملم، ونصاب بالدهشة، لا بد أنه يمزح ، لا بد يقصد ١٢٠ ملم ، يا الله كم هي جميلة عمان وكم كان خدها ناعماً ويخدشه المطر .

على أغصان دفلى

وطني الممتد كحديقة ورد في خاصرة الشام، وكشامة في وجه عروس شرقية، وطني عنف الجمال في هدوء الجبال وسر الحب في آثار ممتدة منذ عمون الأولى إلى تكنولوجيا الأشياء وخطوط العز التي ارتسمت على الجباه وحبات عرق نزفن من جبين فلاح في غور الأردن .

وطني ممتد حالة عشق مع الشريان ورائحة لعبق التقاء المطر مع التراب ومشهداً لدحنونة تعانق سوسنة سوداء وترسم لوحة عشق أردنية .

وطني وصحوة فلاح عند الفجر وغناء تاجر يعانق قفل دكانه، وموظف سارح في غياهب حلم وترقية ووعود .

وطني وضمادة جرح ونزف قلب وحياة تأسرنا عبر سياجه والتصاق بتراب كما الحناء وزقزقة عصافير على أغصان دفلى.

وطني وشوق مغترب لموظف في المطار وشجن لليالي بعيدة وبرد غربة قارص ووجع في الروح. وطني وشوقاً لساندويشة فلافل من الهنيني أو أبو جبارة، ورائحة لبن العميد، وصحن كنافة لحبيبة، وأنت تتصفح الكتب عند كشك أبوعلي، وعشاء ذات خميس في مطعم هاشم.

وطني ورحلة عائلة لبحرنا المالح وبائع يبيع الترمس على ضجيج الذباب وحبل علق عليه مايوهات للسباحة ولوازم رحلات أخرى.

وطني وشجرة سرو شامخة في عجلون وبلوطة منذ عرار في وادي الشتا وزيتونة مغبرة أغصانها على جنبات شارع ترابي.

وطني وفوضى الحياة في أسواق عتيقة وخارجين على القانون يتاجرون بشغب ورجل بلدية يتابع الفوضى بامتعاض ويشعل سيجارة ويطلق أفأفة وحوله تجار يتوسطون لعربة ذرة مصادرة.

وطني كل الأشياء وطني زرّع مع كريات الدم فكان عشقاً وطني لا تبتعد عنّا أكثر لا تبتعد.

دفتر الحب

عندما كنّا صغاراً يافعين وعند بلوغنا سن الحب كان يمتلك كل واحد فينا دفتراً للحب وهو إما أجندة قديمة أو دفتر أربعة وستين أكل عليه الدهر وشرب، وكان دفتر الحب لميسوري الحال هو دفتر مخصص لذلك ويشرى من المكتبات، وكان زهري اللون للبنات وكان للأطفال مثلنا مرسوم عليه صورة لمركبة أو كرة أو لوحة سريالية غير مفهومة إمعاناً في الثقافة.

كان دفتر الحب تقليداً أعمى عند جيلنا الموغل في التعب والحب الافتراضي وكان دفتري الخاص بالحب هو عبارة عن أجندة كنت قد أخذتها من أشياء أبي وقد خسرت من أولها عشر صفحات وأغلبها مكتوب فيها كلمات وحسابات

لم أفهم أغلبها ولكن تذكرت منها أجور عمال وثمن محروقات وأجور مواصلات وأشياء أخرى شبيهة.

كان هناك تقليد لدفتر الحب وهو وضع وردة جورية تتوسط أوراقه وعلى اعتبار أنها هدية من الحبيبة وكنا نتفاخر أمام أصدقائنا بأن هذه الوردة من حبيبة ما ولا نذكر الاسم ليبقى الشك في قلب الصديق والحسد والغيرة، وكان دفتري يحتوي على خمس وردات موزعات بين الأوراق، وكان يحتوي على ريشة نعام كنت قد سللتها من منفضة غبار في دكان (أبو توفيق) ولا أدري ما سبب وجودها وما هو لزومها إلا أنني شاهدتها في دفتر صديق وقال لي ذات كذبة إنها هدية من فاطمة وفاطمة بنت سمراء ناعمة تسكن طرف الحي وكنا نتسابق على الافتراء على علاقة معها.

ودفتر الحب عند البنات كان له طابع خاص فهو معطر ناعم زهري اللون وفيه كثير من الكذب كدفاترنا وأذكر مرة أن حصلت على دفتر لإحدى البنات بمحض الصدفة، حيث وجدت الدفتر في قمامتهم وكنت هاوياً ومحترفاً في فن البحث في أكياس القمامة وكان أن هربت بالدفتر كمن وجد كنزاً، فتحت الدفتر على أغصان تينتنا وبعيداً عن أعين حسادي من الأطفال الأشقياء، ووجدت فيه طعماً للحب الحقيقي الذي نتمناه وكان في كل صفحة خاطرة وقد ذيلت باسمها المشرف (عاشقة من فلسطين) وعندما أنهيت قراءة دفترها أصابتني غصة في القلب وحمة في البال وخبأت دفترها على صدري وذهبت لأحضر دفتري الغبي الوضيع ومزقت أوراقه وقررت منذ ذلك اليوم أن تكون معشوقتي فلسطين.

كانت هذه نقطة تحول في حياتي وحفظت كل خواطر هذا الدفتر وكلماته حيث كان دفتراً ثورياً وطنياً وتوسط أوراقه صورة لجيفارا وأخرى لخليل الوزير وشعاراً جميلاً لمنظمة التحرير .

كان دفتر تلك العاشقة التي تربت على حب فلسطين هو الذي جعلني أعيد حسابات طفولتي المشـاغبة وبدأت عندي مرحلة جديدة ومسار أخر بدء مبكراً وتعشش الحنين للوطن منذ ذلك الحين وخربشت على الجدران في كل مكان أحرف فلسطين وأعلنت انتمائي للجرحى والأسرى والشهداء وسجلت في دفترها كلمة أخيرة . . . أنا (عاشق من فلسطين) . . . وأحرقت دفترها بعد زمن خوفاً عليها من الحساد والعابثين الأبرياء، وحجزت لي مقعداً مبكراً مع جيل الشباب ولم يتجاوز عمري بعد الأحد عشر عاماً.

سلام عليك يا عاشقة من فلسطين.

سلام عليك حيث كنتِ وحيث تصنعين جيلاً كاملاً من الثوار وتزرعين حب فلسطين في قلوبنا منذ الصغر

سلام عليك..

أعراسنا وهز الخصر

كانت أعراسنا في الماضي لها نكهة خاصة ولها بهجة وسرور وفيها صفاء للقلوب وتصفية للنوايا وتعالٍ على الزعل والغضب والكيديات.

كنا ننصب بيت الشعر منذ يوم الأحد ونبدأ باستقبال الضيوف من أهل الحارة أولاً، وكانت الضيافة القهوة العربية السادة الأصيلة والشاي، وكان يوم الخميس يوماً مميزاً حيث كان يأتينا الأقارب والصحاب من خارج عمان، وكان أغلبهم ينامون في بيوتنا حتى ظهر الجمعة، وكان يوم الخميس هو يوم الدبكة واليرغول والشبابة وجلسات الختايرة على الفراش العربي الجميل وعند أذان العشاء من يوم الخميس كان عشاء الضيوف ينتظرهم في إحدى البيوت القريبة.

وتحلو سهرة الخميس عند بدء الذبح ما بعد الساعة الثانية عشره منتصف الليل ويبدأ الأقارب والأهل بذبح وسلخ وتقطيع اللحم المخصص لغداء الجمعة.

وماً أجمل ظهر الجمعة عندما تبدأ المناسف تهل على جموع الضيوف ويكون منظر مدخل البيت أقرب إلى دكان لسمّان فوضوي لكثرة أكياس الأرز والسكر التي يحضرها الضيوف على سبيل النقوط ، والنقوط من العادات والتقاليد الجميلة التي أذكت موروثنا الاجتماعي بالحب والمساعدة وهي هبة مستردة عند المثل من زواج أو طهور أو خطوبة أو نجاح.

بدأت تتغير عادات الناس وتقاليدها، وبدأت الصالات تسرق مناً البهجة والسرور وإذا ما وصلتك بطاقة دعوة لعرس في صالة يجتاحك شعور غريب وتردد في الحضور ولا تحس بالسعادة ولا بالفرح ولا بأجوائه الجميلة .

إن التغيّر الحاصل الآن ليس في مكان انعقاد العرس فقط بل في أخلاق الناس وطبيعتهم وعاداتهم وتقاليدهم فمن السهل جداً أن يصلك كرت دعوة لعرس ما وقد تذيلت الدعوة عبارة تقول: سهرة في دخلة دار أبو محمد، ويا لهذه السهرة من سهرة شباب يتصفون بالمياعة وقلة الحياء يتراقصون كالغوغاء على موسيقى صاخبة لعمرو ذياب أو إيهاب توفيق في مشهد أقرب ما يكون للنوادي الليلية وصالات القمار وما يحزنك أكثر مناظرهم التي هي أسوأ ما في الحفلة، فخصرهم ساحل وعلى شعرهم جِل بطريقة مؤذية للنظر وتشاهد قصّات الشعر الغريبة والعجيبة وقد تحلوا بالأساور والحلي والسناسيل والجلود كالكلاب، أعزكم الله .

وتسمى حفلة في النهاية وتغلق لأجلها الشوارع وربما تتبرع إحدى دوريات شرطة النجدة بتنظيم السير قربهم وإعطائهم جو الأمان.

ويسمى عرساً ويعطي الجيران المبرر لهذه الفوضى والصخب (يلا هم كل يوم بدهم يعملوا حفلة).

الأدهى والأمر أننا بتنا نسمع عن أعراس في عمان يندى لها الجبين فالرقص أصبح فيها مختلطاً والعرس مختلطاً والأخلاق مختلطة وكل شيء مباح.

اللهم أبعد شرهم عنّا.

متى سيدرك الآباء والأمهات من أبناء عمومتنا وأقاربنا أن الخطر يبدأ من هنا؟.

لا أدري كيف يجلس الأب ويشاهد منظر ابنه وهو يتراقص أمامه كالرجل المخنث وربما يتفاخر أمام الناس ويقول إن ابني كان أرقصهم وأشطرهم.

تغير كل شيء في مجتمعنا، وذهبت الأخلاق التي كنّا ولا زلنا نراهن عليها في الشدائد.

هل ستعود أيام زمان بفرحها وترحها؟؟.

اللهم أصلح الحال..